بسم الله الرحمن الرحيم

كلمةُ التَّحرير

لاحظَ أحدُ القرَّاء أنَّ الآخر – وبغضِّ النَّظر عن الموقع الذي يحتلُّه في السلَّم القيمي السَّلبي – من أصحاب الدِّيانات الأخرى، أو من العلمانيين، أو ممن لا دين لهم، يُوصفون في أغلب الأحيان بوصف سلبي فيما يُنشرُ من أبحاث ودراسات في مجلَّة التَّجديد؛ وتساءل مُحقّاً: ألا يؤدِّي هذا التَّناول التبخيسي للآخر إلى الجهل به وعدم إمكان الاستفادة من خبرته وتجاربه؟ ثُمَّ ألا يؤدِّي هذا الأمرُ إلى تعميق الهوَّة بين الأنا والآخر فينعكس ذلك سلباً على المسلمين أنفسهم؟

هل صحيحٌ أنَّ الشُّعور بالغيرية شعور تنخفض حدَّته كلَّما كانت معارف الإنسان أوسع، وثقافته أشمل؟ هل توفِّر المعرفة للإنسان الإمكانات العقلية والنفسية التي تجعله أكثر حرصاً على معرفته كما هو كائن وليس كما يريد أن يكون؟ لا شك أنَّ التبيُّن من أخلاق العلماء، ولكن ليس لكل تصرفات الإنسان منطق يحكمها، ففي أحيان كثيرة يكون الإنسان العالم محكوماً بالثقافة التي يتحرَّك في إطارها، وبالتاريخ الحضاري الذي ينتمي إليه، ومحكوماً أيضاً بما شاع من أفكار وتصوُّرات.

أَلَمْ يعدّ أرسطو العنصر الإغريقي – وبحكم وضعه الجغرافي المتوسط – الوحيدَ القادر على الجمع بين الذّكاء والشّجاعة وحسن الإدارة (تكوين الحكومات) وعليه فهُمُ المؤهَّلون وحدهم لقيادة العالم!؛ حجَّته في ذلك أنَّ الشُّعوب التي تقطن الأقطار الباردة تمتاز بالشَّجاعة ولكنَّها فاقدة للذكاء، ولا تحسن الصِّناعة، مستقلَّةٌ في حياها ولكنَّها صعبة الانقياد ولا تنصاع لأيِّ نظام، والشُّعوب التي تقطن آسيا تمتاز بالذَّكاء والبراعة في الفنون لكنَّها ذات إرادة ميتة، ولا ترى بأساً في العيش تحت نير الاستعباد.

ومن بعد أرسطو جاء الجغرافيون المسلمون من أمثال ابن حوقل والمسعودي وغيرهما، ورأوا في أهل الشَّرق عموماً وأهلِ العراق تحديداً الأجمل أهلاً، والأكثر أموالاً، والأفخر صناعةً، والأوفر عقلاً وذلك "لكثرة مرافقه – العراق – واعتدال أرضه، وغضارة عيشه، ومادَّة الرَّافدين إليه وهما دجلة والفرات، وعموم الأمن، وبُعد الخوف عنه، وتوسُّطه الأقاليم السَّبعة، وقد كانت الأوائل تشبِّهه من العالم بالقلب من الجسد، لأنَّ أرضه من إقليم بابل الذي تشبَّعت الآراء من أهله بحكمة الأمور، كما يقع ذلك عن القلب، ولذلك اعتدلت ألوان أهله، واقتدرت أجسامهم، فسلموا من شقرة الرُّوم والصقالبة، وسواد الحبشة، وغلظ البربر ومَن جفا من الأمم، واجتمعت فيهم محاسن الأمور، وأشرف هذا الإقليم مدينة السَّلام".

ومن بعد الجغرافيين الإسلاميين جاءت الحضارة الغربيَّة التي تأسَّست على فكرة تفوُّق الرَّجل الأبيض، وأخذت تقريباً بالسُّلم الذي وضعه المسعودي ولكن معكوساً؛ قال بذلك فلاسفة ومفكِّرون كبار. لقد صاحبت ظاهرة استعلاء الأنا وتبخيس الآخر كلَّ الحضارات دون استثناء، فقد ظلت لعهد طويل الاستراتيجية التحصينية المعتمدة لحفظ الأنا من مخاطر معرفة المميِّزات التي يتمتع بها الآخر، مخافة أن يحلَّ فيه الآخر نسبياً أو كلياً فيعرضه إلى

الانحـــلال، والغــريب أنَّه كلما كان التشابه كبيراً بين الأنا والآخر، كانت كـــثافة الكــلام عـــن تميِّز الأنا قوية. ولكنَّ هذه الاستراتيجية لم تعد تنفع وحـــدها لحفظ الذات، لأنَّ الأنا والآخر أصبحا فاعلين في الساحة نفسها، وبالوســـائل نفسها، وأصبح الآخر حاضراً بنفسه وبالصورة التي هو عليها، ولـــيس فقط في الصورة التي رسمها له الأنا، لم يعد إذاً من الممكن أن تصمد صورة المخيال أمام الصورة الواقعية للآخر.

قد يكون من السَّهل أن نفهم الموقف الأرسطي الذي تأسَّس على مقارنة سطحيَّة بين الإغريقيّ وغير الإغريقيّ في لحظة تاريخيَّة معيَّنة، وبدا له وكأنَّ الفرق بينه وبين غيره فرقٌ جبلِّيّ. ومن السَّهل أن نفهم الموقف الغربيّ الذي ربـــطَ بـــين التفوُّق العلميّ والتفوُّق العرقي، وقد تهاوى هذا الموقف - على الأقـــلّ في المســـتوى النَّظري - بفعل العمليَّات النَّقديَّة المستمرِّة، ولكن من الصَّـــعب أن نفهم موقف المفكِّرين المسلمين الذين اعتقدوا بنظريَّة الأقاليم والقـــرآنُ بـــين أيديهم يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ منْ قَوم عَسَـــى أَنْ يَكُونُـــوا خَيْـــراً مِـــنْهُم وَلاَ نسَاءٌ منْ نسَاء عَسَى أنْ يَكُنَّ خَيْراًمنْهُنَّ﴾ {الحُجُرات: ١١}؛ ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ منْ ذَكَـــرٍ وَأُنْثَـــى وَجَعَلْـــنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ {الحُجُرات: ١٣}.

لا شكَّ أنَّ الإنسان يميل إلى البحث عن كيفيَّات للتَّصنيف حتَّى يسهُلَ عليه الـــتَّعامل مـــع الآخر، ولكنَّ سهولة التَّعامل الإجرائي لا تؤدِّي بالضرورة إلى معـــرفة الآخر وتحقيق التَّعارف القرآنيّ، والتَّعامل معه تعاملاً يقوم على أساس التَّراحم، وعلى أساس أنَّ القرآن الكريم هو أسُّ هذا التَّراحم. التَّعارف يقتضي الاعتراف بالآخر وبخصوصياته، ولكنَّ التَّصنيف بطبعه عملٌ اختزالي يقوم على الانتقاص، ويؤدِّي بالضرورة إلى التنافي المتبادل.

التصنيف القيمي في ذاته أمرٌ مقبول إذا كان القصد منه معرفة خصوصيات أو مميزات شعب معيَّن بُغية الوصول إلى طرق ناجعة في التخاطب معه، ولكن إذا كان الهدف هو تبخيسه ووضعه في درجة دونية تُزهِّد في التعامل معه يصبح من العوائق التي تَصُدُّ عن فهم المنطق الداخلي لثقافة معينة، وبالتالي الإعراض عنها وعدم التعامل معها. والتصنيف إذا حَكَمَهُ هذا المنطق لا يقف عند إطلاق الأحكام على الآخر الخارجيّ، ولكنَّه يتَّسع ليشمل الآخر المحلي، فيؤدي إلى الفرقة والتجزئة.

كيف إذاً نفهم منطق التَّبخيس الذي يحكم بعض الكتابات الإسلاميَّة؟ لعلَّ الأمر يعود إلى سوء فهم للآيات القرآنيَّة الكريمة التي يُفهم منها القوامة: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِيْ لِلْتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيْراً﴾ {الإسراء: ٩}، أو الهيمنة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ {المائدة: ٤٨}، قوامة القرآن وهيمنته تتأتى من مضمونه الرَّبانيّ فهو القول الفصل، وليس من الذين يحملونه فهم بشر يجتهدون ويخطئون ويكدحون لملاقاة ربهم ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيْهِ﴾ {الانشقاق: ٦}.

والتَّصديق به والعمل بأحكامه لم يكن في يوم من الأيام حكراً على شعب من الشعوب أو أمة من الأمم، والتَّفريق بين أُمَّة النِّداء وأُمَّة الاستجابة تفريق لا يستند إلى أساس شرعي، فالعالمون كلهم من أمَّة النِّداء؛ ولعلَّه أيضاً يعود إلى ردّ فعل على تشويه صورة الإسلام والمسلمين التي أصبحت نقطة الارتكاز في الإعلام الغربي، خاصَّة بعد انهيار المعسكر الشّيوعي ونهاية الحرب الباردة؛ ذكر شابٌ مهاجر تمَّ اعتقاله في إحدى الدُّول الأوروبيَّة، أنه طلبَ أثناء مدَّة الاعتقال التحفُّظي تمكينَهُ من أداء فريضة الصَّلاة، فلم يرَ الحارسُ مانعاً من

ذلك، ولكنَّه لم يستطع منع نفسه من إلقاء نظرة خاطفة على هويّة هذا الأجنبيّ الذي يحرصُ على أداء الصَّلاة في ظروف غير مناسبة، وظلّ لفترة يتمتم بأشياء غير مفهومة، و لم يستطع إخفاء شعوره تجاه هذا الآخر الذي تجمّع فيه ما تفرق في غيره، وسألهُ قائلاً: أليس كثيراً عليك أن تجمع بين جنسيتك العربيَّة ولونك الأسمر ودينك الإسلاميّ؟ واحدةٌ فقط تكفي ليكون القاضي منحازاً! مثل هذه الحوادث التي يتعرض لها الإنسان المسلم تجعله يتصرف بطريقة لاشعورية تجاه الآخرين الذين يصرّون على تقديمه في صورة مشوهة.

قـــد يعود الأمر أيضاً إلي مؤثرات باقية من تلك القسمة التي سادت لفتـــرة طويلة، قسمة العالم إلى دارين: دار إسلام ودار كفر، دار السّلم ودار الحــــرب، فمـــا وراء دار الإســـلام "أقوام كفرة لا فائدة من معرفة أحـــوالهم، لأنَّ أحــــوالهم بعـــيدة عن أحوال الأناسيّ، قريبة من أحوال البهائم"، كما يقول المفكّر النَّاقد ابن خلدون.

كلُّ هذه الأحكام القيمية تعكس حالة التَّوتر الدَّائم التي كانت ولا زالت تميّـــز العلاقـــة بين العالم الإسلامي وبين مجاوريه من الأقوام الأخرى، وإلاَّ فالمـــبدأ القـــرآني واضـــح لا يحـــتاج إلى تأكيد ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيْ آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ والبَحْرِ﴾ {الإسراء : ٧٠}. فالله سبحانه و تعالى كرَّم الإنســـان بوصـــفه إنساناً وجعل التفاضل بين النّاس على أساس التقوى و العمل الصالح. لقد تبدَّل الوضع وتغيرت الأحوال وأصبح الإسلام عالمياً كما أصـــبح الكفر عالمياً فلم تعد دار الإسلام دار الإيمان بإطلاق، و لم تعد دار الحـــرب دار الكفـــر بإطلاق، فلا يخلو الشرق من قيم منحطة كما لا يخلو الغـــرب من قِيَم حقٍّ وخير. ولا يظننّ القارئ الكريم أنَّني بصدد البحث عن مـــبرِّرات لبعض كُتَّابنا الكرام الذين قد غاب عنهم – عن قصد أو عن غير

قصـــد – التَّفـــريق بين الفكرة وحاملها و رسخت بعض التجارب الخاصة أحكاماً قيمية سلبية عن الآخرين.

مـــن حقّهم أن يرتِّبوا الأفكار والمبادئ انطلاقاً من المعايير الإسلامية، ولكن ليس من حقِّهم أن ينطلقوا من بعض التَّجارب الخاصَّة، فيجعلوا من انطــباعاتهم مــوازين للحكـــم على الأعراف وطرق العيش لشعب من الشُّعوب، فإنَّهم بذلك يضيفون إلى عوائق الدَّعوة الإسلامية عوائق أخرى هي في غنى عنها.

الـــتعارف من حيث هو قيمة إسلامية يقتضي ضرورة إعادة النَّظر في فقه الأقليات القديم الذي لم يعد قادراً على استيعاب التَّحوُّلات الاجتماعية الكبرى الـــتي عـــرفها العـــالم الإسلامي، وقد يجعلها المتربِّصون بالدَّعوة الإسلاميَّة في المجـــتمعات غير الإسلاميَّة حُجَّةً للتضييق على المسلمين الذين لم يعد وجودهم فـــيها وجـــوداً مؤقّتاً – كما كان الحال في الماضي – بل أصبح وجوداً دائماً، وأصبحوا جزءاً منها، واحتلَّ الإسلام بذلك التَّرتيب الثَّاني في بعض بلدانها.

أمر آخر يجب استحضاره عندما نكتب عن الآخرين، هو ضرورة التَّفريق بين سياسة حكوماتهم التي يغلب عليها العداء للإسلام والمسلمين والشُّعوب الـــتي تجهـــل الإسلام أصلاً، ولا تعرف عنه إلاَّ تلك الصورة التَّبخيسية التي تروِّجها وسائل الإعلام، لأنَّه إذا قابلنا هذا التَّشويه بتشويه مماثل قضينا على أســـباب التَّعارف، وقدَّمنا خدمةً مجانيَّة لأولئك الذين يخطِّطون للحيلولة بين تلك الشُّعوب وبين رغبتها في معرفة الإسلام.

ســـنحرص إن شـــاء الله وقـــدر الإمكان على أن يكون حضور الآخر في الدِّراســـات الـــتي تنشـــرها مجلَّة التَّجديد حضوراً إيجابياً يؤدِّي إلى تعميق التَّعارف بين الشُّعوب والثَّقافات وتوفير أسباب الحوار المثمر.